

نهضة العربية الاخيرة

(١)

سادني الاخوان

سألتهموني سعدت بكم اوطانكم ان احدتكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في
المقاسم الاخيرة وما منكم الا من استفيدته واشرف بالاخذ عنه . انتم من اهل الفتنة الفاضلة
في وطنكم يتوقع منكم ان تنهروا آفاق جهله بانوار معارفكم وان تعمروا اكاف معالته ومجاهله
بما تفتنوه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتهم من علم صحيح واداب
رافعة . فاني لي وانا نازل بينكم متعلما لا معلما ان افوه في حفرتكم بكلام وقد اعتادت
آذانكم سماع مصانع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالك لوانصفتكم
وانصفت نفسي الاحال من يحمل الثمر الى جحر او المسك الى ارض الترك استغفر الله
بل ان حال من يلقي محاضرة على جمعية الاخاء المصرية في باريس اعجب واغرب .

اخواني : تعلمون قوت بكم هيون مصر انه انت على اللغة العربية ادوار واطوار
وعرض لما يمرض لكل كان في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتس ايام
ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد القنور في جسم الامة
الاسلامية طمة والامة العربية خاصة . ثلاثة قرون بل اكثر مضت في مرض مستعصم كانت
تلك الموت هذه اللغة الشريفة التي تمجد اليوم على امثالكم خناسرها وترجو بمناعيمكم ان
يكون مستقبلها خيرا من حاضرها وغازها يد ان لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من
المسلمين ان يتعلموها لفهموا بها كتابهم العزيز يستعمل عليها الاصحاحل مادام سيف
الارض مسلم يوحد الله .

لا بد لكل حركة من سبب . وسبب ما عرا العربية من الضعف سيف تلك القرون
انقطاع الملك عن الاخذ يدها فاصبحت الامور العلية صورة ينظر فيها الى الاشكال
لا الى الحقائق واقتصرت الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من
العلوم فضولا لاغناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما عاصب البلاد من
ضعف الاحكام ونساذ النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفي النادر ان يهتم جاهل بتعليم
او يربي من لم يربي .

وكان قدرة المولى تطلعت بان هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من ابتائها ان تأنبها

الصحة على أيدي خبرهم . وربما يجب بعضهم الآن إذا قلنا له ان مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر ايام محمد علي وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من اهل العلم من الفرنسيين فكان من اعماله الجليلة ماخلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لامن حيث منازعه السياسية من اعاجيب الحكام في الشرق . والشرق ابو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل ان محمد علي كان امياً او يقرب من درجة الأمية . مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لانه كان ارنأودياً ولم يخطط سطرأ واحداً لانه تعلم في الكهولة مبادئ طقفة من حسن الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد عني بما لم يكن به احد من ملوك المتأخرين وشرع منذ استتب له امر مصر يختار الاذكياء من ابناءها ممن قروا الدروس الوسطى فيبحث بهم على نفقة الحكومة الى اوربا ليخصوا في العلوم التي اولعوا بها حتى اذا عاد احدهم واتم تحصيله يجسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية في الفن الذي اتقنه . ويوعز اليه بان لا يخرج من القلعة قبل ان يترجمه بالعربية ويأمر له باسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف . فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على امير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس او الى لجنة كانت معروفة اذ ذاك بلجنة الامتحانات فبعد ان تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الاميرية ويصدق الامير على المترجم انواع الهبات ويشرع في ترقية في المراتب ان كان ممن استعدوا للادارة او الجندية او البحرية واذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو اعلم خليفة في الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر ما يشكر مآثره على يد محمد علي الامي الابائي وعصره عصر شيخوخة الاسلام والسلمين .

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب احد حنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختمها محمد علي لمن يعني بعده ولهاهد تلك الحركة العلمية في اباها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهد لها الآن في تجددها : لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة احسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من ابناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسي وربما كان بدون قصد سي منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في المدارس الاميرية زاعماً بان الواجب على

المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى الا اذا اتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في ايامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتمطيتها لابناء انكلترا وقطعت الاراسيات العلمية الى اوربا حتى لم يكدهم يبق اليوم من اولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر واخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بامثال دنلوب وارثين من كل ما ينفع اللغة او كان من آثار النهضة الاولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً من مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل المعارف على من عقوا لغتهم وامهم كما حق اخوة يوسف ابن ابيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التأليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرها من مصنفاته

قال غالب بك كانت اكثر اساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الاولى من الفرنسيين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسية والمترجم معه بنقله الى العربية فيلحق على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدية والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي ان الوقت قد حان لان تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين اذ قد اصبح فيهم الاكفاه الآن وان مهمة فرنسا في تربية ابناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت او كادت .
 ثم في ذاك العهد تم للعربية ما تريد من تمريب المصنفات العلمية والادبية على اختلاف انواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد ان انقطع سند العلوم منها قرونا واحياء اولئك المصريون امثال الطهطاوي والشبدي والشباسي والبيهاوي والتجراوي وحماة وبيجات والفلكي وندي والنبراوي والبقلي الفاخا من لغتنا كانت في حكم الدارس هجرت منذ كانت العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والاموية في قرطبة والفاطمية في مصر واضافوا الى تلك الالفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المسنحذات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سلك عليها اجدادنا العربون غالباً حتى ان الاثرك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والارانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا امامهم كثراً حاضراً ينتفع به في الحال مثل تلك العربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية بزميتها وادمجوها في تعايف لغتهم

كان الطلبة الذين ارسلهم محمد علي الى الخارج في اوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لاني النظر المصري فقطبل في البلاد العربية كافة واصبحت مصر بيض اياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتمزاعها بالارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الافرنجية زهاء التي مجلد . والاثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قبله او عرب في قلم الترجمة برئاسة واباءه من المبادي في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها اعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جليل . خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الايام ومنها جريدة وادي النيل لابي السعيد ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يتولى اي علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المنشورة والمنظومة ليس الا . والجواب انه لا ادب لمن خلت لغته من امثال هذه المعارف . فكما ان للعلوم ارتباطا كليا بعضها ببعض هكذا اللغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من انواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية ان لم تكن لغة علم قبل كل شيء .

وهنا مسألة مهمة لاحب ان امر بها وانا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبية وهي انا اذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لانبثاق نشبه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية . وشارلمان كما لا يمتزب عن علمكم كان من اعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي انفذ اليه الرشيد العباسي رسولا من قبله سنة ٨٠١ م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحكي المتبحرين اليه من امراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة . كان شارلمان لاول امره أميا تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي الان تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروسا فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستعربين والمعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما انشاء من المدارس باشارة الكوين المشهور استاذه وامين سره وبأذن الجرائيم الاولى من المعارف في هذه الارض الفرنسية وبمساعيه أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوفيرة لينتفع بها الطلاب ومن العجيب انه حدث لنهضة شارلمان ما حدث ل نهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك

انه لما مضى لسيده عادت تلك الحركة العقلية فركبت ربيعها جملة واحدة لان من خلفوه على سرير الامبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة في البلاد النخطة قد تنوم بالفرد اكثر من قيامها بالافراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية . ات خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم او كاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتهاء عقول الامة وعلى يد اناس من ابتائنها كما قامت مصر منذ نحو عشرين تجدد حياة اديانها بيد هابيد محمد علي بنحو خمسين سنة متكة في مهنتها على نفسها لا على الحكومة وبذلك جاز لنا الاستباط بان كل اصلاح يقوم بالامة في هذا الوجود يكون الامل في بقاء اكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجدد فيها تميزاً بين الامة والحكومة . والحكومات قد تعرض لما عوارض تسمى بها الترغيب في العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجبل على العلم . ولهذا المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وتوفي في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشق وتقط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى نقل .

كان الادب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سمج كسج الكهان طول بلا طول ولا طائل وجل ياردة سمجة وشعر ريك اكثره في الامادج والاهاجي وان ارتقى الشاعر افنقى لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والتخلال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال . وما انزلكم اعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لكم شيء كثير من امثال هذه الركاكات والسخافات فضر بتم بها عرض الحائض وحمدتم الله على ان خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب امثال محمد عبده واحمد فارس وابراهيم المولجي وابراهيم اليازجي وابراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبدالله فكري ومحمد شكرى الالوسي وجمال الدين القاسمي وحفي ناصر ويعقوب صروف وابراهيم مصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم امين واحمد فحجي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهر اوسى وعبد العزيز جاووش وصالح حمدي حماد وليب البنتوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف واحمد تيمور وزكي مغامر وشاكر شقير وسامي نصيري وشجادة شجادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفرح انطون وجرجي بني وابراهيم النجار واديب اسحق ونعوم لبي ونعوم مكرزل واحمد فؤاد وسعيد ابو جرة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيرم وغير الدين

النونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الانكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وصعيد الباقى ومحمد مود وحافظ عوض وحسن حسني الطويراني واحمد سمير وعبد الغني العربي ورزق الله حسون ويوسف البستاني وانطون جميل وعادل ارسلان ونسيب ارسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد ويوسف زخم وعبد الوهاب النجار ومبشيل بيطار و خليل زينية ومحمد مصطفى واحمد زكي ومصطفى لطفي المافلوطي وامين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعلوف وديمتري قدلفت ويوسف الخازن وروحي الخالدي ومحي الدين الخياط ومحمد المويلحي و خليل سعادة وداود بركات وبشارة ززل ويولس زوين وعبد القادر المغربي وبدر الدين النعساني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المولى بدوعبد الكريم سلمان واحمد الصابوني وعشرات غيرهم لا تحضر في الآن اسراؤهم من شيو خنا وكهول و شباننا وقام من الشعراء محمود سامي وعبد المحسن الكاظمي واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وشكيب ارسلان وفارس الخوري و خليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وامين الحداد وولي الدين يكن ونقولاً رزق الله وشبلي ملاط وداود عمون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم ومن الخطباء جمال الدين الانغاني وعبد الله نديم و ابراهيم الهلباوي وسعد زغلول واحمد الحسيني ونقولاً توما ومصطفى كمال وعبد الرحمن شهنذر وانيس معلوم واسكندر العازار وفارس نمر ومحمد ابو شادي وامين ربحاني ومحمد لطفي جمعة واحمد لطفي السيد واحمد عبد اللطيف وعمر لطفي واحمد لطفي و ابراهيم اللقاني واحمد محمود وعبد العزيز العالي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الاخيرة عملوا خيرها في مصر والشام والعراق وتونس اعمالاً وخلف اكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على نواله .

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الامارة العلوية عزَّ على الشام ان تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك في اواسط القرن الماضي وكانت بيروت مدينة وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها اناس من مرسلتي الفرنسيين والاميركان وانشؤا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية واقتنوا كثيرون من اهل لبنان فحمد مساعهم وكانت اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فاندليك ويوحنا ورتبات وهما من اعظام مؤسسي

الكلية الأميركية الانجائية في بيروت تعلم العربية والاول اميركي والثاني ارمني ودرسا
بها مع اقرانها العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها ان عمدة المدرسة
لما عمدت ان تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية قاوما ماوسعتهما
المقاومة ولما اخفقا استقالا من وظيفتهما لانهما ابت مروءتهما الا ان يحضضا النصح
للبلا دولتها . والدكتور كرنيلوس فاندريك الاميركاني في سورية بفضلته على اللغة
العربية وما عرب لها من كتب العلم اشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه
العجب في فاندريك اعظم لانه اميركي الجنس والمشاء غار على لغة العرب اكثر من اهلها
ومن الغضاضة على مصر والشام انهما لم تعرفا لها حقهما على ما يجب وكان على القطرين
ان يرفعاهما تمثالين كما رفعت باريز لوطوغو وروسو او كما رفعت مصر لمحمد علي
وابراهيم . والعلماء ان لم يكونوا احق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا اقل
من ان يكونوا على مستواهم .

ولقد كان من اعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذلك الدور ايضا
بطرس البستاني واسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد
وبه في مدرسته الوطنية من اصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب
وناصيف اليازجي واسرته وغيرهم . فهو لا كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات
من الطلبة الذين انشروا بعد في افطار الشام ومصر واميركا وكان منهم الكتاب
والصانعون والمحامون والخطباء . ولم تحرم الاستانة — والعواصم مرزوقة منذ
خلقها الله — من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبعثه واعني
به احمد فارس الشدياق الذي اقترح علي صدقي سيد افندي كامل من رجال الجامعة
المصرية ان اتوسع في الكلام عليه .

اصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضبا فقصى زمنا
طويلا في مصر ولونس ومالطة وفرنسا وانكثرا وتعلم في خلال ذلك الانكليزية
والافرنسية ثم دان بالاسلام والف بعض الكتب ومنها الثيف في كل معنى طريف
طب في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتب في اوربا كتب الساق على الساق في ماهو الفارباقي
او ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠هـ .
ومنذ ترجمة حياته وشؤوننا وشجوننا على اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان
تعد من الانشاء المعروف عند الافرنج بالامورستيك (الجد في المزل) او الرياليست

(الحقيقي) الذي حدث في عهد فلور او الناوورالست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتاقته في التعبير والتعبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات احمد فارس فيها قاموس الفير وزابادي الذي ألف كتاباً مهيأً في نقده سماه الجاسوس على القاموس - كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستخسر في دقيقة ما يصعب الالتيان به في ساعة ويتقن ما شاء يئانه وتبياناه . ولفظ الفارياق مقتطع من اول اسمه « فارس » وأخر اسم أسرته « الشدياق » . وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين حملة منكرا لان بعضهم قتلوا اخاه ظلماً وتعصبا جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لانه دان بالمذهب البرتستاني (١)

هرب احمد فارس مدينة الامتانة بعد ان خبر حال اورباخيرة زائدة وانشأ جريدة الجواب التي طارصيتها في الآفاق ورزق الخطوة بعلمه فكان ملوك الاطراف يهادونه ويمتحنونه المنافع ومن كان يساعده خديوي مصر وباني تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجواب معظم تأليفه العربية وكان هذا الملك اعلم الملوك المتأخرين بل اشبه بابي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم اسرار الكتاب والسنة ولقد كانت جريدة الجواب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها على نسقها وقل ان نشأت لنا جريدة في صنعها ودياجتها العربية اللهم الا ان تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المولي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لان جريدته كانت كباته اسبوعية وله فيها مساعدون في الاقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر احبابه من العلماء في شمالي افريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النفاذ في كل ما ينشر فيمنعه ويؤوقه وناهيك بكلام تصقله الانامل الفارسية . فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلقه من آثاره . ومن اراد ان يطلع على شيء من كتاباته في جوابه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب في منتخبات الجواب وهو معابوع متداول وان احب الاطلاع على الجواب يرمتها في جمعها ووضعها فيرجع اليها في خزائن الكتب في اوربا ومصر والامانة .

ولم يقف عمل احمد فارس عند حد نشر جوابه وكتبه ومنها كتاب سمر الليال ورحلة

(١) وهنا قرئت نموذجات من شعر احمد فارس ونثره من كتابه الفارياق

له الى اوربا جديده محضة وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الادب واللغة والشعر ككتب الثعالي والتوحيد والطنطاوي والبديع وغيرهم من ائمة الادب نشرها على احسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها باثمان بحجة فعمت بها الفائدة وانشأ طلاب الآداب يتحدونها في اسلوبها . وما برحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون .

ابتلي احمد فارس باتاس حسدوه واي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره ونثره وينقدون جريدهته وكتبه ولكن تلك المناقشات الغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا الا جرأة على الجري في مضاره وقبولا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان ينقده بعض كتاب العربية اشبه بسات بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسيين فاستفاد ارباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد ما دار بين التقدم والمقسط والبيان والضياع والمشرق وبذلك اخذ من يعانون صناعة القلم بأنون قليلا فيما يكتبونه واخذت تحف اغلاط الكاترين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كما نقل الناقولون عن اللغات الافرنجية ونحو المؤلفون مناسحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا ان نقول اليوم ان اسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بايمازاه واندماجه وانقطيعه وفيه بلاغة قدماء المثشين وسلاسة المعاصرين وافكارهم .

نعم عادت لغة العربية ولاسيما في الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك الجمع المتكلف الذي اتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في اكثره الا ان من جاؤا بعده قد افسدوا به علينا لغتنا لانهم لم يتقنوه .

وافي لا زال اذكر ما كنت اكثر من مطالعته واستظهاره ايام ولوعي بالادب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليعقوبي ومقامات الزمخشري ومقامات الاصفهاني وقلائد العقيان وذبله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الادب لابن حجة والريحانة للحفاجي وغيرها من الكتب التي كنت اطرب لتلاوتها ولا اكاد افارقها في خلوتي

وجلوتي . ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسية والتركية وانشأت البحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وابي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الاصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهاذة المنشئين غدوت اعجب من نفسي كيف اخذت وقتها في تلقف تلك الاسفار المسجومة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعدادها وهو في الحقيقة ونفس الامر مادة ادب كهاو مادة علم لا تبلى على الدهر جديدها ولا تنفد دياجتها كما كنت اعجب من اقبالي ايام الطلب على تلاوة شعر ابن النبية وابن معنوق والصفي الحلبي وابن منبجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من اهل هذا الشأن امثال ابي تمام وابي الطيب وابي عبادة وابي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وابي فراس الحمداني .

يرجع الفضل الاكبر في انتشار دواوين الادب والتاريخ واللغة من كتبنا العلماء المشاركة من الغربيين امثال دوزي وداسي ووستفيلد وعشرات غيرهم من اهل اوربا ولبعض مانشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت في اوقات مختلفة في مصر لاهياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا المخصص لابن سيده احسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال اعانت العربية على تحسين آدابها وتزويدها . ولانسى غير اولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم على مناحي الاوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطابع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز واولئك الذين وقفوا انفسهم منذ عشرات من السنين يربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم افكار الغريبيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكأنوا مجتمعنا الادبي على ما تزونه وجددوا للغة شباها بحيث أمننا بفضلهم عليها من الغناء واصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء .

انا لا اقدم لكم مثالا من امثلة ارتقاء لغتنا اكثر من ان احيلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سوربة والفلاح والمحروسة في مصر وان ترجعوا الى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا اليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركافة بعض الشيء . قابلوا المنشورات

التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من امثالها منذ مئة سنة مما اورد الجبرقي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفصه . عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به السن الحامين واقلامهم في مصر من التنفن في اساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرقاً صالحاً . منه يقبلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع او يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم وان كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخرًا واسألوا كيف كانت منذ البدء حليقة الضعف والسماجة . اقرأوا المحاضرات التي تلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعبد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تلى زمن الثورة العراية وبعدها مثلاً تدركون كيف وقتنا الله الى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع في الاداء والالقاء .

ليس مما يعد من نبوض اللغة مانراه من احكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة احياناً يخرجوا من دار العلوم فكانوا والله اعرف بالعربية وفنونها من اكثر من اشتهروا في قرون الاخطاط الاخيرة على غير حق اما من تحض منهم للتدريس والنفع فهم مغر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكمتها من العرب العرباء واحاطوا بعلوم الوقت احاطة نبيه الغربيين .

واليكم ايضاً مثلاً صغيراً اذكره لكم على ما آتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض الممد من لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجلة تستط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لا تتلوه في عسطلات الحشيين والمهشين والشارحين من الفقهاء والنوبيين المتأخرين وما ذلك الا بفضل المدارس المنفلحة وما تلقية الجرائد على مسامع الناس وانظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتنفن فيه من اساليب التعليم . نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات اعانت على انتشار الآداب وادخلت الغيرة على التعلم في نفوس ارباب الاستعداد ولقد رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع اهلها بمطالعة الجرائد لقللة انتشارها بينهم مازال اهبا الى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فان مدينة فاس منذ التسديم

ماخلت من افراد يعانون الآداب على الاصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من اهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً بعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لان اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الادوار سوق نافقة ولا من حكومتها تحاول منذ القديم ان تجعل اهلها فرنسيين في لغتهم وافكارهم ومنازلهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي واشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الاذكياء من الخلدوينيين وغيرهم . اما طرابلس الغرب وبرقة والاحياء والسودان فهي من اخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عديمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقف ملكة العربية واعني به شقيط بلد الشيخ محمد محمود الشقيطي الحافظ المشهور في عمرنا . وطريقة اهل طرينة الاندلس في الثاني والاستظهار وقد شوهدت في شقيط بعض البنات الشقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم واطن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الازهر .

اما سورية فتد كاد ينحصر الفضل في احياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الاخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومستط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا ان ذلك لم يحل دون نبوغ بعض افراد شاركو اتم المشاركة في حياة العربية ومعني بهم بعض اولئك العراقيين الشرايع الذين القوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الافكار الذي دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لانغالي اذا قلنا ان ثلاثة ارباع ماتم للعربية من الارتقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس . ومن الاسف اننا لانزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون اشبه بالمالطية والكوشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الانغلاق في التركيب والتأليف والانفاط والوضع ما تسأل الله معه السلامة واقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التي صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبننداد والبصرة والموصل واسن منها جرائد مهاجري سورية في اميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تفل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق . ومع هذا فان الآمال قويت بان لا ينتصف

هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها
بالضاد بل بالصاد والحاء واغاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي
المؤرخين من ابنائها امثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة
ومنبعث انوارها واريد بها الحجاز واليمن ونجداً فان فيها بقايا من ارباب الذكاء النادر
الى الآن من لو تمرنوا على العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاقى على ايديهم خير كثير للائمة
ولا يرسى ذلك الا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على اموالهم
وارواحهم ليتفرغوا افراد منهم للدرس والاستنارة

هذا ما احضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة القليلة في هذه المعاصرة وربما
خرجت من البحث بعض الشيء وساحة عقولكم تدعني وانتم تعلمون اني على اوفاز
استودعكم الله والسلام عليكم

— — — — —

طريقة التعليم

كان من اول الاصلاح في اوروبا اواخر القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة
لما شرعت الامم الراقية فيها تدرس العلوم المادية والادبية ان اتت على طريقة التعليم
تصلحها بما يقتضيه حال الزمن والتجارب فتم لها في أوائل القرن الماضي تنظيم
مدارسها على النحو الذي نراها عليه اليوم واصبحت يدخلها الطالب فيتعلم في بضع سنين
لغة اولتين او ثلاثاً معها الى ما يتبحر عليه معرفته من العلوم الطبيعية والرياضية
والاجتماعية والادبية والاقتصادية فيخرج الطالب بعد هذه الدروس النظامية الاولى
مملأ بفروع كثيرة بل بامهات العلوم واصولها المقررة لاعداد العقول للتفكير والانامل
للكثافة والا لان لا تطلق والاجسام للحركة وهذه الدروس التي يربو عليها دروس الموسوعات
(الانسكلوبيدية) يمر فيها الطالب على كثير من المطالب تفتية اذا اراد الاختصار عليها
والانصراف الى أكثر الاعمال التجارية والصناعية والزراعية والعلمية . واذا سميت
به مهنة الى الاختصاص في علم واحد من العلوم التي ذاقها في الجملة يتمحض لها ويدخل
مدارسها الخاصة كمدارس الزراعة والتجارة والمعادن والميكانيكيات والادب والطب